في جثسيماني

«رَجُلُ أَوْجَاعٍ وَمُخْتَبِرُ الْحَزَنِ»

(إش ٥٣: ٣)

✠✚✠

كم سمعنا عن شخص وُصف بأنّه رجل حرب أو رجل فن أو رجل عِلم أو رجل سياسة أو رجل أعمال، أمَّا "رجل أوجاع" فلم نسمع عنها قطّ. إنّها صفة الرَّب في حياته على الأرض. هناك في جثسيماني هاجت على ابن الله القدوس أمواجٌ من الأحزان. فهو وإن كان في كل حياته "رجل أوجاع ومُختبر الحَزَن"؛ ولكن هنا نرى ساكنَ الأبد، ومَن كان في الحضرة الإلهية من الأزل وإلى الأبد سببَ فرحٍ دائمٍ للآب (أم ٨ :٣٠)، نراه هنا مُحاطًا من كل ناحية بالحزن. وحزنه هذه المرة فاق كل أحزانه السابقة. إنّ التأمُّل في هذه الأحداث تجعل المشاعر تختلجُ في داخلنا تُجاه ذاك الذي أحبَّنا وأسلَمَ نفسَه لأجلنا.

في جثسيماني انفصل عن التلاميذ «نَحْوَ رَمْيَةِ حَجَرٍ وَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ» (لو ٢٢: ٤١)، وفي المكان الذي كان سيسقط فيه الحجر تمامًا، خرَّ سيدنا وجثا على ركبتيه وصلى. لكن إلى أي بُعد كانت رمية الحجر هذه؟ في متى ٢٦: ٣٩ نقرأ « ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلًا وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ»، وبما أنَّ هذا القليل هو مسافة رمية الحجر فإننا ندرك أن الحجر كان حجرًا ثقيلًا وكبيرًا. قال الرَّب للكتبة والفريسيين عن المرأة التي أُمسكت في ذات الفعل «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيَّةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلًا بِحَجَرٍ!» (يو ٨: ٧). كان هو الذي بلا خطيئة، والذي رُمي بالحجر وتحمَّل الدينونة بدلًا منها.

فبنعالٍ مخلوعة نقترب من هذا البستان، المكان الذي اختبر الرب فيه عصر النفس الرهيب[١]. عبَّرتْ البَشائر عن الصِّراع الذي دخلت فيه نفس السَّيِّد بتعبيرات مختلفة: «ابْتَدَأَ يَحْزَنُ وَيَكْتَئِبُ» (مت ٢٦: ٣٧)؛ «ابْتَدَأَ يَدْهَشُ» (مر ١٤: ٣٣) وكأن الدَّهشة ممَّا سيأتي عليه أخذته تمامًا. فكأنَّه خشي أن تنهار قواه: «إِذْ كَانَ فِي جِهَادٍ كَانَ يُصَلِّي بِأَشَدِّ لَجَاجَةٍ» (لو ٢٢: ٤٤)، هذا الذي عبَّر عنه كاتب العبرانيين: «الَّذِي، فِي أَيَّامِ جَسَدِهِ، إِذْ قَدَّمَ بِصُرَاخٍ شَدِيدٍ وَدُمُوعٍ

---

(١) جثسيماني: كلمه سريانيّة ܓܕܣܡܢ، גת שמנים (جت سمنيم) معناها معصرة الزيت (جت: عصر، سمنة: زيت).

طَلِبَاتٍ وَتَضَرُّعَاتٍ لِلْقَادِرِ أَنْ يُخَلِّصَهُ مِنَ الْمَوْتِ» (عب ٥: ٧)، و«صَارَ عَرَقُهُ كَقَطَرَاتِ دَمٍ نَازِلَةٍ عَلَى الأَرْضِ». فنتيجة شدة الصِّراع والجهاد الجُسماني، اندفع الدم من خلال مسَام الجسد، وصار العرق مختلطًا بالدم، وتصبَّب على الأرض! إن كانت هذه هي جَثسيماني، فماذا إذًا كانت الجُلجثة بالنسبة له؟!

وأحزان السيد في البستان هي فوق مقدور البشر، فإنما تحوي أغوارًا سحيقة يعسر على العقل المحدود أن يسبرها. فلو أمكننا أن نُدرك شيئًا من عظمة شخصه، وكم هو قدوس، وكم هو كامل في ذاته، سيمكننا إذ ذاك أن ندرك شيئًا من أحزان نفسه في تلك الليلة العصيبة، تلك الأحزان الكثيفة التي اجتازت فيها نفسه قبل أن يصل إلى الجلجثة.

لقد ارتَسم أمام الرب هناك عارُنا المُشين الذي سيكسر قلبه فوق الصليب، والتعييرات المُهينة التي ستقع عليه، وتركُ الآب له. فأحسَّ بالضيق الشديد يضغط على نفسه للحدِّ الذي عنده قال: «نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدًّا حَتَّى الْمَوْتِ» (مت ٢٦: ٣٨). فذاك الذي «يَشْفِي الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ، وَيَجْبُرُ كَسْرَهُمْ» (مز ١٤٧: ٣) ها هو يُعاني من جرّاء الحزن الرهيب! حتى كَسَرَ العارُ قلبَه فمَرِضَ (مز ٦٩: ٢٠). كان ربنا المعبود منفردًا في تلك الساعة ولم يجد مَنْ يقترب منه ويرثي له. كان يصلي بمفرده بينما أحباؤه ينامون. فلم يجد مَنْ يشاركه آلامه ويقترب منه ويخفف عنه أحزانه «انْتَظَرْتُ رِقَّةً فَلَمْ تَكُنْ، وَمُعَزِّينَ فَلَمْ أَجِدْ» (مز ٦٩: ٢٠). هذا هو "رجل الأوجاع" الذي اختبر ضمن ما اختبر الشّك، والإنكار، والضيق، والاكتئاب، والانفراد، والغدر والخيانة. كل هذا في طريق خلاصنا. ما أكرَمه! وما أمجده!

في مزمور ١٠٢ نجد لغة جثسيماني الحزينة المؤلمة، فهناك نسمع صراخ ذلك المسكين الذي يسكب شكواه قدام الله؛ المسكين الذي يعاني ضيقًا عظيمًا، غائصًا في أعماق مرارة النفس، وهو على وشك أن يُقطع من أرض الأحياء، نسمعه مُصليًا ساكبًا نفسه بصراخ شديد ودموع وكأنَّه يستعطف الآب قائلًا: «يَا إِلهِي، لاَ تَقْبِضْنِي فِي نِصْفِ أَيَّامِي». ثم ينتظر الابن الجواب، فما هو الجواب الذي يأتي يا تُرى، مِن الإله الأبدي، إلى ذاك الذي كان في مكان الاتضاع والطاعة طالبًا مشيئة الآب؟ إلى ذاك الذي وضع نفسه حتى إلى تراب الموت، والذي كان يتسلَّم الكأس التي سيشربها بعد قليل إلى آخر نقطة

فيها؟ إنَّ الآب يخاطبه كالرب قائلًا: «وَأَنْتَ يَا رَبُّ» (عب ١: ١٠)، «إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ سِنُوكَ، مِنْ قِدَمٍ أَسَّسْتَ الأَرْضَ، وَالسَّمَاوَاتُ هِيَ عَمَلُ يَدَيْكَ. هِيَ تَبِيدُ وَأَنْتَ تَبْقَى ... وَأَنْتَ هُوَ وَسِنُوكَ لَنْ تَنْتَهِيَ» (مز ١٠٢: ٢٤-٢٧). وأكَّد الروح القدس في الرسالة إلى العبرانيين أنَّ الآب يخاطب ابنه المبارك بهذه الكلمات (عب ١: ١٠-١٢).

فالذي كان يتنهَّد حزينًا حتى الموت في البستان، ابن الله المبارك في مكان اتضاعه، يخاطبه الآب كخالق السماء والأرض! أنستطيع أن نتصوَّر أنه يوجد طرفا نقيض معًا أكثر من هذين حسب الظاهر؛ اتضاعٌ مُتناهٍ، وإعياءٌ لا حدَّ له، وصراخٌ للآب في ضعف ودموع، هذا من طرف، ومن الطرف الآخر: إجابةٌ آتية من ذات عرش الآب، مُخاطبةً ذلك المسكين الشاكي كالله الكائن على الكل، المبارك إلى الأبد!

ألا يقودنا هذا إلى الاتجاه بقلوبٍ متعبدة إلى ذلك السَّيد المبارك مُخاطبين إياه بنفس اللغة؟ عندما نتفكَّر فيه وهو في صورة الاتضاع، وليس مِنْ سبيل إلى رؤية مجده سوى بالإيمان، وعندما نراه جائلًا في اتضاع وكأنه متسربل بجلود تُخس (خر ٢٦: ١٤) مُخفيًا المجد الداخلي عن الأنظار، ألا نشعر بأننا مدفوعون لأن نصيح قائلًا: «ربي وإلهي»!

في هذا المزمور العجيب كان لسان حال المسيح «أَشْبَهْتُ قُوقَ الْبَرِّيَّةِ. صِرْتُ مِثْلَ بُومَةِ الْخِرَبِ. سَهِدْتُ وَصِرْتُ كَعُصْفُورٍ مُنْفَرِدٍ عَلَى السَّطْحِ» (مز ١٠٢: ٦، ٧). مع أنَّ المسيح مُشبّهٌ في الكتاب بالنَّسر القوي (خر ١٩: ٤) وبالحمام الطاهر (لا ٥: ١١)، لكنّه هنا يُشبَّه بالطيور التي تُشير إلى البؤس والحزن. لقد ذهب الضياءُ من العينين، والجمالُ من الوجه، وذلك بسبب ما تعرَّض له من صوم، وتنهُّد، وسُهاد، وعار، ووحدة، وعداوة. حتّى قيل عنه إنَّه «كَانَ مَنْظَرُهُ كَذَا مُفْسَدًا أَكْثَرَ مِنَ الرَّجُلِ، وَصُورَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ بَنِي آدَمَ» (إش ٥٢: ١٤)، بمعنى أنَّ منظره كان مُشوَّهًا بحيث لا يُشبه منظرَ إنسان إلَّا قليلًا وشكله بالكاد يُشبه ابن آدم أي ذهبت مَعَالِم وجهِهِ.

وهنا في مز ١٠٢ يذكر ثلاثة تشبيهات من الطيور: قوق البريَّة، وبومة الخرب، وعصفور منفرد:

قوق البرية، أو البجع، هو أشد الطيور عبوسةً وكآبةً. وهو صورة رمزية للشخص

المكتوب عنه «رجل أوجاع ومختبر الحزن» (إش ٥٣: ٣). ثم إنَّ القوق طائر يلذ له العيش في الماء، فماذا تكون حالته لو أُخِذَ من الماء إلى البريَّة؟! أي إلى ظروف عكس التي اعتاد عليها تمامًا. هكذا كان ربنا المعبود على هذه الأرض، لقد أتى من السماء حيث القداسة والنور والحب إلى عالم غريب مختلف عن طبيعته كل الاختلاف حيث الظلمة والبغضة والشرّ. كان الرَّب في وسط لم يفهمه أحد: قالت له القدِّيسة العذراء «يَا بُنَيَّ، لِمَاذَا فَعَلْتَ بِنَا هكَذَا؟ هُوَذَا أَبُوكَ وَأَنَا كُنَّا نَطْلُبُكَ مُعَذَّبَيْنِ!» فَقَال لَهُمَا: «لِمَاذَا كُنْتُمَا تَطْلُبَانِنِي؟ أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ فِي مَا لأَبِي؟» مرةً قَالَ لَهُ فِيلُبُّسُ: «يَا سَيِّدُ، أَرِنَا الآبَ وَكَفَانَا»، قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنَا مَعَكُمْ زَمَانًا هذِهِ مُدَّتُهُ وَلَمْ تَعْرِفْنِي يَا فِيلُبُّسُ!» ومرةً أخرى قَالَ لتلاميذه «حِينَ أَرْسَلْتُكُمْ بِلاَ كِيسٍ وَلاَ مِزْوَدٍ وَلاَ أَحْذِيَةٍ، هَلْ أَعْوَزَكُمْ شَيْءٌ؟...لكِنِ الآنَ، مَنْ لَهُ كِيسٌ فَلْيَأْخُذْهُ وَمِزْوَدٌ كَذلِكَ. وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَلْيَبِعْ ثَوْبَهُ وَيَشْتَرِ سَيْفًا»، فَقَالُوا: «يَا رَبُّ، هُوَذَا هُنَا سَيْفَانِ»، فَقَالَ لَهُمْ: «يَكْفِي!».

بومة الخِرَب: التي تسكن عادة في الخِرَب والأماكن المهجورة، إنِّها طائر متجهِّم وحزين ولا يمكن أنْ يكون فَرحًا، ومعروفة بشكلها غير اللائق. والمسيح كان في نظر الأُمَّة «لا صورة له ولا جمال فننظر إليه، ولا منظرَ فنشتهيه» (إش ٥٣: ٢).

عصفور منفرد على السطح: العصفور بطبيعته كائن اجتماعيٌّ، ينتظر أليفه على السَّطح، يتألم وينوح إذا فقد رفيقه، وكم يكون حزنه عند شعوره بالانفراد والعزلة. وكم كان حزن ربنا يسوع واكتئابه، فعند القبض عليه تركه تلاميذه الأحباء وهربوا، وفوق الصليب تركه الله القدوس، فيا لرهبة هذه العُزلة الانفرادية!! وتمت فيه كلمات النبوة «انتظرتُ رقةً فلم تكن ومُعزين فلم أجد» (مز٦٩: ٢٠).

قال أحد علماء الطيور: "إنه لا يوجد طائر حزين كئيب مثل القوق، ولا يلذ لطائر السكنى في الخرائب مثل البومة، ولا يوجد مَنْ يعاني الوحدة الشديدة مثل العصفور عندما يفقد أليفه". ولو سألنا: لماذا خلق الله القوق والبوم؟ فيمكننا أن نجيب بالقول "لكي تُصوِّر لنا بطريقة أوضح شدَّة أحزان المسيح في طريق خلاصنا". في كلِّ حياته كان المسيح مثل قوق البرية، وفي جثسيماني وجبَّاثا حيث حُوكم من يد البشر وأُهين، كان مثل بومة الخِرَب، وأخيرًا في الجلجثة كان كعصفورٍ منفردٍ على السطح!!